الفصل الأول
عوامل الضعف المعنوي عند المسلمين في عصر ملوك الطوائف بالأندلس

١ ـ ضعف الالتزام بمبادئ الدين وأحكامه.
٢ ـ انعدام الوحدة السياسية بين مسلمي الأندلس.
٣ ـ تخلي كثير من المسلمين عن الجهاد في سبيل الله.
٤ ـ العصبية القبلية التي انتشرت بين المسلمين هناك، وأثرها في تمزيق المسلمين إلى شعوب وقبائل متناحرة.

عوامل الضعف المعنوي عند المسلمين في عصر ملوك الطوائف بالأندلس

أولاً: ضعف الالتزام بمبادئ الدين وأحكامه:

حينما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس أخذوا يسعون لنشر الإسلام، وتأصيل مبادئه في نفوس المسلمين هناك؛ حيث دعوا إليه بأفعالهم، ثم عرضوه على الناس بأقوالهم؛ موضّحين ما فيه من خير وسعادة للبشرية، ولما كان هذا الدين يتّسم بقوة ذاتية حققت المثل الإنسانية الفريدة لمعتنقيه، فقد أقبل الكثير من سكان تلك الديار على الدخول في الإسلام برغبة ذاتية ودون إكراه، بل عن طواعية واختيار، وهكذا لم تمض مدة وجيزة إلا وقد انصهر معظم سكان الأندلس في بوتقة الإسلام على مختلف طبقاتهم وفئاتهم[1]؛ ولهذا أصبح شعارهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [**الحجرات**: ١٠]، كما استشعروا قوله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»[2].

ومما لا شك فيه أن هذا النجاح الباهر الذي حققه الجنود الفاتحون لبلاد الأندلس هو الذي دفعهم إلى مواصلة المسيرة الجهادية في شمال الأندلس وخلف جبال البرتات؛ حيث أصبح هذا الأمر هاجساً ملازماً لكثير من الجند الفاتحين، فقد ذكر الحميدي أن محمد بن حبيب المعافري قدم مع النعمان بن عبد

(١) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ١٣١.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١١٩)، وانظر: جامع الأصول، ج ٨، ص ٢٧ـ٢٨.

الله الحضرمي على سليمان بن عبد الملك في بلاد الشام: فقال سلمان: «ارفعا حوائجكما؛ فأما المعافري فرفع حوائجه فقُضيت، وأما النعمان [١] فقال: حاجتي أن تردني إلى ثغري، ولا تسألني عن شيء. فأذن له فرجع، واستشهد في أقصى الثغور بالأندلس»[٢].

وقد سار مسلمو الأندلس على هذا المنهج، في عهدي الفتح والوُلاة، حيث التزم الناس بأحكام الدين وأوامره، حتى غدت الجزيرة الأندلسية رباط جهاد، وموئل حضارة، ومنبت إنسانية كريمة؛ إذ حافظ الجميع على الفضائل التي دخلوا بها، كما أدرك كل واحد منهم مسؤوليته أينما كان موقعه[٣].

ولما قامت الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ - ٤٢٢ هـ/ ٧٥٥ - ١٠٣٢م) بقي المسلمون محافظين على ذلك المستوى، كما التزم معظم الحكام الأمويين هناك بالشرع الإسلامي منهجاً للحكم وسلوكاً شخصياً لهم، فضلاً عن أخذهم الرعية على ذلك، فقد كانوا يحكمون بالكتاب والسنَّة[٤]، يقيمون الصلاة[٥]، ويؤدون الزكاة وفق ما جاء في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ[٦].

والمتتبع لتاريخ أولئك القوم يدرك أنهم قد ساروا وفق ذلك المنهج، فقد التزم

---

(١) هو النعمان بن عبد الله بن النعمان الحضرمي من آل الرأسين، كان رجلاً صالحاً زاهداً كثير الصدقة، حيث كان يتصدق بعطائه كله، كان في أول أمره يسكن مدينة برقة، ثم دخل الأندلس مع طلائع الجيش الإسلامي الفاتح. (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٥٨، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ص ١٥٩).

(٢) جذوة المقتبس، ص ٣٥٨.

(٣) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢١١.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ٣٧ (نقلاً عن ابن حيان).

(٥) ابن حزم، نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ص ٧٣، النويري، نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ٣٥٨.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ٣٥٨.

كثير من الحكام الأمويين بأحكام الإسلام، والدعوة إلى تطبيقها، والعمل بها، وليس هنا مكان عرضها وبسط القول فيها، ولكن من المناسب في هذا المقام أن نذكر كتاب الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ) الذي وجهه إلى شيخ قبيلة كتامة أبي العيش[١] ابن أيوب، ومما جاء فيه دعوته إياه بأن تكون أحكامه «على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنَّة محمد ﷺ المرسل بهما، وأن يأخذ نفسه بمراعاتهما والاهتداء بهما؛ فإنهما مفتاح جنته والنور الذي لا يضل من استضاء به، ومراعاة الصلاة لأوقاتها وإقامتها على كمالها. . . »[٢].

ويدرك المتمعن لما جاء في الكتاب أن الخليفة الحكم المستنصر قد وضَّح المنهج الذي تسير عليه الدولة الأموية في شؤون حكمها بل في جميع أمور حياتها، ولم يكن هذا الكتاب وما يماثله من وثائق هي وحدها الشاهد على ترسُّم الأمويين خطا المنهج الإسلامي، بل إن واقع تلك الدولة وتصرفات كثير من حكامها دليل آخر على السير وفق المنهج الإسلامي في معظم شؤون حياتها، ولم يضعف الناس في هذا إلا في آخر عمر الدولة، وهذا مما غير واقع المجتمع الإسلامي هناك، كما عجل بنهاية حكم الأمويين، ولما جاء عصر ملوك الطوائف (٤٢٢-٤٨٢ هـ) كان واقع مسلمي الأندلس قد تغير نتيجة للضعف الإداري، والفوضى السياسية التي مُني بها المسلمون هناك، فسلطة السلطان قد ضعفت، وأحوال الناس قد تغيرت، وأهدافهم السامية قد تهاوت.

---

(١) كتامة: قبيلة بربرية، تقطن شمال بلاد المغرب، وهي إحدى قبائل البرنس، وهم أصحاب عمارة وضرع. انظر: (ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٨٩، ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ٣٥٢، عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج ١، ص ٢٩٢).

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص ١١١-١١٢، وللاطلاع على الرسالة كاملة، انظر: المصدر السابق، ص ١١١-١١٥.

ولعل من المناسب - وقبل أن نخوض في تفصيلات ضعف الالتزام بمبادئ الدين - أن نذكر تصوير بعض مؤرخي الأندلس وكتّابها لهذا الزمن، فابن حيان - شيخ مؤرخي الأندلس - قال واصفاً ذلك العصر: «دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، فسفسف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفَّه أحلامهم، وخبَّث ضمائرهم، فاحتوىٰ عليهم الجهل، . . . يعلِّلون نفوسهم بالباطل»(١).

أما ابن حزم فقد وصف تلكم الحالة بقوله: «اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سبباً في انقراض أعمارهم، وعوناً لأعدائنا عليهم عن حاجة ملتهم، حتىٰ استشرف لذلك أهل القلة والذمة، وانطلقت ألسِنة أهل الكفر والشرك»(٢).

كما ذكر في موضع آخر أن ملوك الطوائف لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها(٣)، وقد ذكر ابن عذارىٰ أنه في سنة ٤٣٥ هـ تميز ملوك الطوائف، وعمتهم الفرقة، ما منهم من يحذر الآخرة(٤).

أما ابن الكردبوس فقد ترك لنا وصفاً أدق حيث بيّن أنهم «مشتغلون بشرب الخمر، واقتناء القيان، وركوب المعاصي، وسماع العيدان، وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملكية، . . . إلىٰ أن ضعف . . . الطالب والمطلوب،

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٨ - ١٨٩، (نقلاً عن ابن حيان)، المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٢.
(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج ٣، ص ٤١.
(٣) المصدر السابق، ص ١٧٦.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠.

وذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية»(١).

ويبدو أن الانشغال بالقيان، وما يصاحب ذلك من لهو، كان من الأمور المسلَّم بها عند ملوك الطوائف، بل إنها قد تأصلت في نفوس الكثيرين منهم، فربما عدُّوها من مظاهر الملك، وعلامات النصر والسعادة؛ حيث يذكر ابن عذارىٰ أن ابن الأفطس حينما انهزم أمام جيش خصمه ابن عباد بعد حروب طويلة؛ أرسل رسوله إلىٰ قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات نافياً بذلك الشماتة عن نفسه، وقد علم العالم أنه لفي شغل عنهن(٢).

وبالإضافة إلىٰ ذلك، فقد أدرك الشعراء والأدباء هذا الضعف، فصوروه، وقد أجادوا في ذلك، ومن هؤلاء أبو الحسن بن الجدّ، وكان مما قاله(٣):

أرى الملوك أصابتهم بأندلسٍ ... دوائرُ السَّوء لا تُبقي ولا تذرُ
ناموا وأسرى تحت الدُّجى قدرٌ ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعرُ من في كفّه قدحٌ ... تحدو به مُذْهلاتُ النأي والوترُ؟!
كأنني بكم قد صرتم سمراً ... وما لكم في الورى عين ولا أثرُ
أماتكم قبل موتٍ سوءُ فعلكُمُ ... وكيف بالذكر إذ لم تُحْسَن السِّيَرُ؟!

كما ذكر المقري قصيدة لأحد شعراء الأندلس، بيَّن فيها واقع المسلمين آنذاك، وكيف تغير حينما ابتعدوا عن دينهم، وتخلوْا عن أصالتهم وقيمهم التي دخلوا بها، ومما جاء في تلك القصيدة(٤):

---

(١) تاريخ الأندلس، ص ٧٧ - ٧٨.
(٢) البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٢.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٨٤ - ٤٨٦، وهذه القصيدة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً، وقد قام الدكتور الطاهر أحمد مكي بتحليلها والتعرف علىٰ هوية قائلها، انظر كتابه: (دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة)، ج ١، ص ٢٢٩.

فإن قلنا العقوبة أدركتهم | وجاءهم من الله النكيرُ
فإنَّا مثلهم وأشد منهم | نجور وكيف يسلم من يجورُ؟!
أنأمن أن يحل بنا انتقام | وفينا الفسق أجمع والفجورُ
وأكل للحرام ولا اضطرار | إليه فيسهل الأمر العسيرُ؟!
ولكن جرأة في عقر دار | كذلك يفعل الكلب العقورُ
يزول الستر عن قوم إذا ما | على العصيان أُرخيت الستورُ

هكذا وصف المؤرخون حالة أولئك القوم، فالبعد عن الالتزام بأحكام الدين ومبادئه أصبح سمة غالبة، لها مظاهرها الواضحة في المجتمع الإسلامي، وقد وصف المراكشي بعض تلك المظاهر بقوله: «وأخذ الله أكثر هؤلاء الرؤساء... بسوء فعلهم... من ظلم المسلمين، وأخذ أموالهم بغير حق، وتغييرهم لنعمهم، وقطعهم لثمارهم»(١).

كما وصف أحد الباحثين المعاصرين ذلك الوضع حينما قال: «انتشر الربا بين الناس الذين تحايلوا على منع الزكاة، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية، حتى يثروا على حساب الغير، كما أثرى غيرهم من الحكام، وجرَّهم هذا إلى إتقان تزييف العملة...، أما الرشوة وأكل أموال اليتامى، والتجسس، والجبن، والجهل، والكذب، وغش الأطعمة والأغذية، وانتشار السرقات، واللصوصية، وغير ذلك من الرذائل، والعيوب الاجتماعية، فقد انتشرت بين الناس انتشاراً واسعاً حتى قال بعض المعاصرين إن تلك الحال لايصلحها إلا نبي»(٢).

وبالإضافة إلى ما سبق؛ فقد انعكس هذا الضعف في التمسك بمبادئ الدين

---

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٠.
(٢) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية، وملوك الطوائف، ص ٣٠١.

وأحكامه على واقع المجتمع الإسلامي هناك؛ حيث أدى غياب الوازع الديني من النفوس - حكاماً ومحكومين - إلى حدوث خلل عام، بدت صوره ومظاهره واضحة للعيان، ولعل من أهمها: سوء علاقات ملوك الطوائف بمن ولاَّهم الله أمرهم من المسلمين؛ حيث كانت تلك العلاقة تقوم في الأعم الغالب على التسلط والقهر، والظلم، والاستعلاء[1]، كما كانوا مطلقي الأيدي مستبدين متساهلين في سفك الدماء، يثقلون كواهل رعاياهم بجمع الأموال والضرائب منهم؛ لإنفاقها على مصالحهم الذاتية، أو لدفعها للنصارى إتاوة كي يضمنوا بقاءهم في الحكم[2].

ولو حاولنا استقصاء هذا الأمر لطال بنا المقام، ولكن نكتفي بذكر نماذج من ظلمهم لرعاياهم، ومن أهمها: ما فعله المعتضد بالله العبادي (٤٦١ - ٤٨٤ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٩١م)، فقد ذكر المراكشي أنه قتل ابنه إسماعيل، كما اغتصب مال رجل أعمى، ثم قتله بعد ذلك، وقتل رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية فر منه إلى طليطلة[3].

على هذا النحو كانت سيرة المعتضد ابن عباد ومنهجه في التعامل مع الناس، وهي - بلا شك - أخلاق وتصرفات بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامي الذي يأمر بالقسط والعدل والإحسان والرحمة؛ ولهذا وصف المراكشي تعامله مع وزرائه

---

(١) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف المرابطين، ص ١٧.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٧١ - ١٧٢، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٧.

(٣) انظر في تفصيلات هذه الحوادث: المراكشي، المعجب، ص ١٤١ - ١٤٥، ولقد غدا ظلم ملوك الطوائف وقسوتهم في فرض الضرائب، ونهب أموال الناس مادة أدبية حتى في كتابات النصارى، انظر على سبيل المثال: ما ورد عن ابن عباد ووزيره ابن عمار في:

Sanchez Alfornoz: Ibn Ammar de Seuilla Buenas Aris 1955.

المقربين إليه بأنه تعامل جائر؛ حيث قال: «لم يزل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً، فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولاً وفقراً»(١)، كما لم يسلم من أذاه المخلصون له الناصحون للمسلمين الذين أهمَّهم وضع إخوانهم المسلمين بالأندلس في ذلك العصر، ومن هؤلاء العالم أبو حفص عمر الهوزني(٢) الذي دعاه إلى الإصلاح، وجهاد العدو النصراني، وإلى الوحدة بين مسلمي الأندلس في ذلك الوقت؛ إذ كان يقوم بهذا العمل بواسطة رسائله وقصائده التي يوجهها للناس، عامتهم وخاصتهم، يدعوهم فيها إلى الجهاد، وإصلاح الواقع، ومما قاله في هذا الغرض تلك الرسالة التي وجهها إلى المعتضد ابن عباد وجاء فيها:

«أَعَبادُ جلَّ الرزءُ والقومُ هُجّع ... على حالةٍ من مثلها يُتوقَّع
فلق كتابي من فراغك ساعةً ... وإن طال فالموصوفُ للطول موضّح
إذا لم أبثَّ الداء ربَّ دوائه ... أضَعْتُ وأهلٌ للملامِ المضيّع

وكتابي عن حالة يشيبُ لشهودها مَفرِقُ الوليد. . . فانتهز فرصتها فقد بان

(١) المعجب، ص ١٤١.

(٢) هو أبو حفص عمر بن حسن الهوزني، ولد سنة ٣٩٢ هـ، وقد اهتم بطلب العلم منذ صغره، ولهذا عُدَّ من علماء الأندلس ومحدثيها، عاش في أول أمره بمدينة إشبيلية بجوار صديقه المعتضد ابن عباد، فلما آلت السلطة إلى المعتضد، تنكر له، وأعرض عنه، فاستأذنه الهوزني بالتوجه إلى المشرق سنة ٤٤٠ هـ، فأذن له، وفي بلاد المشرق تنقل الهوزني بين مصر ومكة لطلب العلم، ثم رجع إلى الأندلس حيث سكن مرسية، وقد اهتم الهوزني بواقع المسلمين في الأندلس، وهذا ما دفعه إلى محاولة الإصلاح، وكان آخر محاولاته تلك الرسالة التي بعث بها إلى المعتضد، وبالرغم من تقبل المعتضد الظاهري لها فإنه دعاه إلى الرجوع إلى إشبيلية، فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة لربيع الأول من سنة ستين. . . أمر خادمين من فتيانه بقتله، فكلاهما أشفق من سوء فعله، فقام إليه هو بنفسه وباشر قتله بيده، كما يقول ابن بسام، (ابن بشكوال، الصلة، ج ٢، ص ٤٠٢-٤٠٣، ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص٨٣، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٥٣٤، المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٣).

من غيرك العجز»[١].

كانت هذه نماذج من الرسالة الطويلة التي وجهها الهوزني إلى المعتضد ابن عباد، وهي - بحق - رسالة صادقة تدل على إخلاص الهوزني، واهتمامه بأمر المسلمين، وإصلاح واقعهم؛ فماذا كان موقف ابن عباد منها؟

يذكر المؤرخون أن موقف المعتضد من تلك الرسالة كان سيئاً فما أن تلقاها حتى أرسل إلى الهوزني يستدعيه للقدوم إلى إشبيلية، فما أن وصل إليها واستقر بها سنة ٤٥٨ هـ حتى بدأ المعتضد يسعى للقضاء عليه فتمكّن من قتله سنة ٤٦٠ هـ[٢]، وهكذا كان موقف المعتضد من تلك الدعوة الإصلاحية، وهو - بلا شك - موقف مشين، يدل دلالة واضحة على خبث الطوية وضيق الأفق عند ملوك الطوائف، وأنهم كانوا يسعون لمصالحهم الذاتية دون مصلحة المسلمين، وهذا ما جعل ابن عباد يعدُّ دعوة الهوزني له بالرجوع إلى الكتاب والسنَّة وتحكيمهما، وكذا الرجوع بالأمة إلى ماضيها الحميد - وهو جهاد العدو - جريمة يستحق فاعلها القتل؛ ولهذا استحل دمه! وقد «أفاضت كتب التاريخ في وصف حديقة الرؤوس المحنطة التي أودعها هام الملوك والرؤساء الذين أبادهم بسيفه»[٣].

هكذا كان منهج المعتضد ابن عباد في التعامل مع الرعية، ومما لا شك فيه أن هذه التصرفات لم تنشأ من فراغ، بل كانت نتيجة طبيعية للبعد عن منهج الله، وتحكيمه في كل شؤون الحياة، ولهذا وصفه ابن بسام بأنه «قطب رحى الفتنة ومنتهى غاية المحنة»[٤]؛ إذ كان لا يتورع عن أي وسيلة «لتحقيق غاياته، مهما

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٨٣-٨٦.
(٢) انظر في تفصيلات هذه الحادثة كلاً من ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٨٣-٨٧، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٥٣٤-٥٣٥، المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٣-٩٤.
(٣) سعيد إعراب، مع القاضي أبي بكر ابن العربي، ص ١٠-١١.
(٤) الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٤.

كانت مجافية لمبادئ الأخلاق والشهامة»[١].

ولم يكن هذا السلوك خاصاً بالمعتضد بالله، أو بدولة بني عباد، بل كان مستشرياً بين معظم ملوك الطوائف، ولم تسلم منه دولة بني جهور التي وُصف مؤسسها أبو حزم جهور بن محمد بن جهور (٤٢٢ - ٤٦١ هـ) بأنه كان جارياً على طريقة الصالحين[٢]، وأنه كان من رجال الدهر حزماً وعزماً ودهاء ورأياً[٣]، كما وصفه ابن حيان بأنه كان «حَلِس كتاب منذ درج، ونجيّ نظر منذ فهم، شاهداً للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة متى تخلفوا عنه، حافظاً لكتاب الله، قائماً به في سره وجهره، منتفياً للتلاوة، لم يعثر له قط على حال يدل على ريبة»[٤]؛ فقد كان هذا السلوك خاصاً بصاحبه أبي الحزم، حيث يذكر المؤرخون أن هذا المنهج قد تغير، ولا سيما في عهد حفيده عبد الملك بن محمد بن جهور (٤٥٨ - ٤٦٢ هـ) الذي كانت بطانته من السفلة وسقاط الناس الذين تسلطوا على الرعية بالأذى حتى ضجرت من جوره وتعديه هو وحاشيته، فثار الناس ضده فخلعوه وأقاموا ابن عباد مكانه[٥]، وهكذا سقطت دولة بني جهور نتيجة للضعف الذي انتابها حينما تخلى حكامها عن ترسُّم الخط الإسلامي، ووقعوا أسرى لشهواتهم وملذاتهم.

وقد كان حكم دولة بني هود كسابقيهم في عدم الالتزام بتعاليم الدين، فمؤسس هذه الدولة سليمان بن محمد بن هود أقام دولته حين عمَّت الفتنة بلاد

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٩.
(٢) المراكشي، المعجب، ص ٩١.
(٣) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٣، ص ١٨٣.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٣، (نقلاً عن ابن حيان).
(٥) انظر في تفصيلات هذه الأحداث: ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٩.

الأندلس بعد أن قتل والي مدينة لاردة[١] واسمه أبو المطرّف يحيىٰ بن المنذر التجيبي[٢].

أما ابنه أحمد بن سليمان فقد تمادىٰ في الظلم حيث كمن لقافلة أرسلها أخوه يوسف والي مدينة لاردة نجدةً لأهل مدينة تطيلة[٣] التي أصابها غلاء شديد، فاستغاثوا بيوسف الذي أهمه أمرهم؛ فدعا أهل الحواضر والثغور لمساعدتهم بالمير والأرزاق، فاجتمع إليه طعام كثير، فهمَّ في توصيله إليهم، وانتدب لهذه المهمة بضعة آلاف من الجند؛ معهم عدد من الخيل والدواب، لكن أخاه أحمد كمن لهم في الطريق فلم ينج منهم إلا اليسير[٤].

كما يذكر ابن عذارىٰ أن أحمد بن هود أثقل كواهل رعيته بجمع الإتاوات والضرائب فاضطر أهل إحدىٰ القرىٰ إلىٰ الشكوىٰ إلىٰ أحد العابدين المعروفين بالخير والصلاح؛ حيث «أعلموه بما يجب عليهم من مال الجزية[٥]، فقال لهم: معاذ الله! هذا لا يكون وأنا حي في الدنيا أبداً، ثم ركب ومعه جماعة من أهل القرية، حتىٰ وصل سرقسطة، فدخل علىٰ المقتدر، ووعظه بما جاء في الشرع، فاغتاظ ابن هود لقوله وقال في نفسه: احتقَرَنا هذا حتىٰ خاطبنا بمثل هذه

---

(١) (لاردة) تقع في ثغر الأندلس الشرقي، وهي مدينة قديمة بنيت علىٰ نهر يخرج من أرض حليقة يعرف بنهر شيقر، وهي خصبة التربة، وتشتهر بكتانها الجيد. (الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠٧).

(٢) ابن عذارىٰ: البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢١، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣٥١.

(٣) (تطيلة): مدينة أندلسية تقع شرق مدينة سرقسطة، وتتبعها عدة مدن وقرىٰ من أهمها مدينة طرسونة. (البكري: جغرافية الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص ٩٠-٩١، ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ١٨، الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢ - ١٣٣).

(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٣، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧٣.

(٥) «الجزية» هكذا ورد عند ابن عذارىٰ، والتزاماً بالأمانة العلمية أبقيتها كما جاءت، علماً بأن لي تحفظاً علىٰ إطلاق هذا المصطلح علىٰ المسلمين؛ لأنه إنما يطلق علىٰ ما يدفعه أهل الكتاب للمسلمين مقابل حمايتهم، وهذا هو مدلوله الشرعي.

المخاطبة، فإن تركناه ولم نعاقبه تجاسر علينا غيره. فأمر بقتله، فقُتل هذا الرجل الصالح - رحمه الله -، واستمرت الجزية على سائر مدن الثغر وأعماله»(١).

ولم يقتصر ظلم أحمد بن هود على الرعية وعامة الناس، بل تجاوزهم إلى المقربين من أهل بيته، حيث يذكر المؤرخون أن سليمان بن هود قبيل وفاته سنة ٤٣٨ هـ قسم أعمال مملكة الثغر الأعلى التي كان يحكمها على أولاده الخمسة؛ حيث أعطى أحمد سرقسطة، ويوسف لاردة ولب ووشقة، والمنذر تطيلة، ومحمداً قلعة أيوب، وقد حاول ابنه أحمد أن ينتزع ما في أيدي إخوانه ويضمه إلى حوزته، فتمكن من ذلك ما عدا لاردة التي كانت لأخيه يوسف، فقد وقف في وجهه(٢)، ويضيف ابن عذارى أن أحمد لم يكتف بهذا العمل المشين، بل إنه احتال على إخوانه فسجنهم وكحل بالنار بعضهم(٣).

كانت هذه صوراً لبعض مظاهر الظلم الذي وقع في دولة بني هود في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي، وهي - بلا شك - تدل دلالة واضحة على أن من زاولها أو رضي بها كان بعيداً عن المنهج الإسلامي، وغير مهتمٍّ بأحكام الدين ومُثله السامية.

أما دولة بني حمود، فلم يكن حكامها بأحسن من سابقيهم في تطبيق تعاليم الدين، والسير على منهجه، وقد بدا هذا الأمر واضحاً في كثير من شؤون

---

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩، وقد ذكر ابن عذارى أن ذلك الرجل قد دعا عليه فرماه الله بعلّة في جسده أذهبت حسه وعقله، فما مات حتى كان ينبح نبح الكلاب، نعوذ بالله من سوء العاقبة. (البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩).

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٤٢٣، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٢٤٧، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٧١، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٣) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٢.

حياتهم، ولعل من أوضحها تلك النزعة العنصرية التي بدت واضحة عندهم حيث ميّزوا في تعاملهم مع الرعية بين جنس وآخر، كما والوا بعضهم علىٰ حساب الآخرين، وهذا التصرف يُعدُّ في نظر الإسلام من أخلاق الجاهلية، وتصرفات الظالمين، ومما يذكر في هذا ما قاله ابن عذارىٰ عن علي بن حمود لما صار الأمر إليه؛ فقد «قهر البرابرة، حتىٰ صار أقل الرعية يرفع أعيانهم إلىٰ الحكام بما شاء من وجوه الدعاوىٰ فيجري عليهم الأحكام، . . . وضرب عنق أحد البرابرة علىٰ حمل عنب قال أخذته كما يأخذ الناس»(١).

وكان هذا التصرف في نظر المؤرخين لصالح العنصر العربي، ولكنه ما لبث أن قلب للعرب ظهر المِجنّ، حينما أحس أن مصالحه في خطر، وأن البربر أصبحوا أكثر ثقلاً من العرب؛ ولهذا صبّ عليهم ضروباً من المغارم، كما جردهم من سلاحهم، «وأُخذت علىٰ الناس الأقطار، وأظلمت الدنيا، وأبلس أهلها، وغشيهم من الله ما غشيهم، فلزموا البيوت، وانطمروا في بطون الأرض، حتىٰ قلَّ بالنهار ظهورهم، وخلت أسواقهم، فإذا دنا المساء وكف الطلب عنهم انكشفوا إلىٰ وقت الظلام لقضاء حاجتهم»(٢).

ولم يقتصر ظلم هذا الرجل علىٰ الأحياء بل تجاوزهم إلىٰ الأموات حيث كان يمثِّل برؤوس قتلاه(٣)، كما ذكر المقري أنه قد أخذ الناس بالإرهاب، والسطوة، كما كان بعيداً عن الفضائل(٤).

ويذكر ابن عذارىٰ أن يحيىٰ بن علي بن حمود الذي تولىٰ الأمر بعد أبيه

(١، ٢) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٢١.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢١.
(٤) نفح الطيب، ج ١، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣، وقد تولىٰ الحكم مرة ثانية من (٤١٦ هـ) إلىٰ (٤٢٧ هـ).

(٤٠٨ ـ ٤١٣ هـ) كان العجب والكبر من أهم صفاته[١]، كما كان متساهلاً في سفك الدماء، ومن أهم ما يذكر في هذا المجال، أنه حاصر عمه القاسم بن حمود في شريش، ثم أخذه أسيراً عنده مع بنيه، وسجنهم، ثم قتل عمه خنقاً[٢]، وكان يحيىٰ بن علي معاقراً للخمر، مدمناً علىٰ اللهو مما أشغله عن الرعية، ومكّن الخصوم منه[٣]؛ حيث كان يخرج للقاء العدو وهو سكران[٤].

ويذكر ابن حيان أن محمد بن إدريس الحمودي (٤٣٨ ـ ٤٤٤ هـ) من زعماء دولة بني حمود المتأخرين، كان سفاكاً للدماء؛ حيث أطلق يده في قتل البربر الأمر الذي دفع أمراء القبائل إلىٰ العمل علىٰ التخلص منه حيث سمُّوه فمات[٥].

أما إدريس بن يحيىٰ (٤٤٤ هـ) المتسمّىٰ بـ (السامي) فكان لا يصحب ولا يُؤثر إلا كل ساقط، كما كان لا يحجب حرمه عنهم[٦].

هكذا كانت حالة أولئك القوم، فقد ابتعد حكامهم في كثير من تصرفاتهم عن أخلاقيات الإسلام وتعاليمه، حتىٰ عمت الفوضىٰ وزادت الفرقة، وتأصل حب الذات[٧]، كما اشتهر بعضهم بالكبرياء، وحب المدح، والتعالي علىٰ الناس، وفي هذا يقول المقري: «وكان بنو حمود. . . إذا حضرهم منشد لمدح،

---

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٣٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٤.
(٣) انظر في تفصيلات ذلك: ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.
(٤) المراكشي، المعجب، ص ٨٢.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٨، (نقلاً عن ابن حيان).
(٦) المراكشي، المعجب، ص ٩٩.
(٧) مما يدل علىٰ حب الذات تنافسهم علىٰ السلطة والسلطان، حتىٰ تقاتلوا من أجلها فمات الكثير من زعمائهم بسبب هذا التناحر، (انظر في تفصيلات ذلك: المراكشي، المعجب، ص ٧٧، ٨٠، ٩٦، ١٠٣).

أو من يحتاج إلىٰ الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة»(١).

وقد سارت علىٰ ذلك النهج دولة بني خزرون (٤٠٢ ـ ٤٦١ هـ)؛ حيث كان مؤسسها أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري (٤٠٢ ـ ٤٢٠ هـ) فتاكاً هتاكاً قتالاً سفاكاً، كما كان ابنه القائم (٤٢٠ ـ ٤٦١ هـ) جائراً حادقاً»(٢).

وقد ذكر ابن عذارىٰ أن هذا الظلم، كان سبباً قوياً من أسباب سقوط دولتهم، حينما حاصرهم المعتضد ابن عباد؛ حيث تخلىٰ عنه أصحابه فافتض ملكه، وعجل هلاكه، وذلك سنة إحدىٰ وستين وأربعمائة(٣).

كما ذكر ابن حيان أن عبد الملك بن عبد العزيز بن الناصر بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر صاحب شاطبة كان «منهمكاً في الشراب، عارياً عن الخصال المحمودة، مع رقة الديانة، ونقص المروءة، وكثرة الاستهمال، والانحطاط في مهاوي اللذات، لا يصغي لوعظ واعظ، ولا يقبل نصح ناصح، أداه ذلك إلىٰ خلعه وزوال ملكه»(٤).

---

(١) نفح الطيب، ج ١، ص ٢١٤، ومما يذكر في هذا المجال، ما ذكره المؤرخون أن أبا زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني، أحد شعراء الأندلس المشهورين، حضر يوماً أمام حاجب إدريس بن يحيىٰ الحمودي، وأنشده قصيدته النونية المشهورة، والتي منها:

وكأن الشمس لما أشرقت ... فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيىٰ بن علي ... بن حمود أمير المؤمنين

فلما بلغ منها قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم ... إنه من نور رب العالمين

رفع إدريس الستر بنفسه وقال: انظر كيف شئت. (ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٤، ص ٧٩٣، المراكشي، المعجب، ص ٩٩، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢١٤).

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٣، (نقلاً عن ابن حيان).

أما عبد الملك بن هذيل (٤٣٦ ـ ٤٩٦ هـ) فقد وصفه ابن حيان بأنه سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلاً لا متجاهلاً، وخاملاً لا متخاملاً، قليل النباهة، شديد الإعجاب بنفسه[١].

وقد انتقد ابن عذارىٰ الفتح بن خاقان حينما أثنىٰ عليه في كتابه: (قلائد العقيان)؛ قال ابن عذارىٰ: «فأثنىٰ عليه بما ليس فيه من المحاسن، ووصفه بصفات ليس هو بأهل لها»[٢].

وحينما توفي، خلفه ابنه حسام الدولة يحيىٰ بن عبد الملك (٤٩٦ ـ ٤٩٧ هـ)، وقد سلك مسلك أبيه؛ فأساء معاملة الناس، كما كان مدمناً علىٰ الخمر، ضعيف العقل، وهذا مما عجل بنهايته وأدىٰ إلىٰ خذلانه[٣].

أما باديس بن هلال بن أبي قرة الذي بايعه أهل رُندة حينما أسر المعتضدُ ابن عباد والدَ هلال وأودعه السجن؛ فقد كان فاسقاً مجرماً، سام الناس سوء العذاب ونهب أموالهم، كما اعتدىٰ علىٰ أعراض نسائهم وبناتهم حيث أباح لرجاله الحرم، فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن، والبنات من آبائهن[٤].

وكان بنو ذي النون حكَّام طليطلة كسابقيهم في السير حسب أهوائهم دون وازع ديني أو خُلقي، حيث لجوا في الفتنة، وجنحوا إلىٰ خذلان المسلمين في الأوقات الصعبة والساعات الحرجة[٥]، فإن يحيىٰ بن إسماعيل بن ذي

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٩، (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٠.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٠ ـ ٣١١، وقد استدل ابن عذارىٰ علىٰ ضعف عقله أنه أهدىٰ إليه أحد ملوك النصارىٰ قرداً، فكان يفخر بذلك القرد علىٰ أقرانه من ملوك الطوائف. (البيان المغرب، ج ٣، ص ٣١١).
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٣.
(٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٨.

النون (٤٢٩ ـ ٤٦٧ هـ) «ذهب به الطمع الخائب كل مذهب، وغره الأمل، واتبع الباطل»[١].

حتىٰ بنو الأفطس الذين وُصفوا بالشهامة والشجاعة والاهتمام بالقضايا العلمية[٢]، لم يتخلصوا من هذا الضعف؛ إذ كان محمد المظفر بن الأفطس (٤٣٧ ـ ٤٦٠ هـ) من المتهمين باقتناء الوصائف الملهيات، حيث كان يسعىٰ لجلبهن مهما كانت قيمتهن، حتىٰ اشتهر بين الناس بالبطالة والانشغال بهن علىٰ الرغم من كون الأعداء والخصوم يحيطون به من كل جهة[٣].

ومن صور ضعف الالتزام بمبادئ الدين: الخلاعة والمجون الذي استشرىٰ بين ملوك الطوائف حتىٰ أصبح خلقاً مألوفاً عند الكثيرين، وهو ـ بلا شك ـ معول هدم ونذير نهاية؛ يقول ابن خلدون: «إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة، حملهم علىٰ ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل، وسلوك طريقها، وهذا ما حدث في الأندلس وأدىٰ فيما أدىٰ إلىٰ ضياعه»[٤].

هكذا كانت حالة أولئك القوم، فقد تخلىٰ الكثير منهم عن تعاليم دينه التي حكم بها أسلافُهم الأندلس؛ حيث صغرت في نفوسهم تلك المبادئ فقلّ اهتمامهم بها، وقد أدرك هذا التقصير ملوك الطوائف أنفسهم؛ فقد اعترف بعضهم بأن ما حل بهم من ضعف وفرقة وتنازع إنما كان بسبب عدم تمسكهم

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٧٩.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٨٥، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٣.

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٤) المقدمة، ج ٢، ص ٤٤٦. وسوف نفصّل القول في هذا الموضوع ـ إن شاء الله ـ في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب.

بتعاليم الدين، وممن اعترف بهذا صراحة المتوكل ابن الأفطس (٤٦٠ ـ ٤٨٧ هـ) في رسالته التي بعث بها إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس (٤٦٥ ـ ٥٠٢ هـ/ ١٠٧٢ ـ ١١٠٩م)، ومما جاء فيها: «أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم؛ فبالذنوب المركوبة»(١).

كما أقر بهذا الأمر المعتمد ابن عباد (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ) في الرسالة التي أرسلها للملك القشتالي، وجاء فيها: «ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة أو وقفة متساعدة إلا ذلاً تعلم مقداره، وتتحقق مناره، والذي جرّأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم وتدبير أمرهم، ونسأل الله ـ سبحانه ـ المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعدائهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك»(٢).

وقد تنّبه لهذا الأمر الشعراء والكتّاب، فبيّنوا أن حقيقة ما أصابهم إنما كان بسبب بعدهم عن منهج الله سبحانه وتعالى، وفي هذا يقول ابن العسال(٣):

ولقد رمانا المشركون بِأَسْهُمٍ ... لم تُخط لكن شأنها الإصماءُ

هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاءُ

ماتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحُماتنا في حربهم جبناءُ

---

(١) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، (تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامة)، ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠ ـ ٩١.

لـولا ذنـوب المـسـلـمـين وأنـهـم ركـبـوا الـكـبـائـر مـا لـهـن خـفـاءُ
مـا كـان يُـنـصـر لـلـنـصـارى فـارس أبـداً عـلـيـهـم فـالـذنـوب الـداءُ
فـشـرارهـا لا يـخـتـفـون بـشـرهـم وصـلاح مُـنْـتَـحـلـي الـصـلاح ريـاءُ

وقد أدرك هذا الأمر العدو النصراني المتربص؛ إذ قال أحد قادتهم: «إن القوم لا دين لهم، ولا شجاعة، ولا عقول معهم»(١).

إن هذا الواقع قد تمخض عنه الفساد، وكثرة الضغائن والأحقاد عند الناس جميعهم، فضلاً عن ملوك الطوائف، وهذا مما أثر في واقع حياة الناس(٢)، وقد وصف ابن حيان سنوات الفتنة في عصر ملوك الطوائف بأنها كانت «شداداً نكدات، صعاباً مشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء العصبية، وظعن الأمن، وحلول المخافة»(٣).

وبعد هذا العرض السريع، فإنه بوسعنا أن نقول: إن ضعف الالتزام بمبادئ الدين وتعاليمه، عند كثير من المسلمين «حكاماً ومحكومين» في عصر ملوك الطوائف، كان من العوامل القوية والمباشرة التي أدت إلى ضعف المسلمين هناك، ويتأكد هذا الأمر إذا تذكرنا أن المسلمين لم يدخلوا تلك الديار ولم يحكموها وهم أقوياء أعزاء إلا حينما كان شرع الله مهيمناً عليهم، ومحكماً في كل شؤون حياتهم.

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٩٥.
(٣) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ٣٦.